موت الواقع وصناعة الأساطير في الحرب على سورية

دور الإعلام في الأزمة الراهنة... تغييب جوهر الحقيقة دعماً للحقيقة الإعلاميّة الكاذبة

عامر فؤاد عامر

عندما نطالع تطوّر الأحداث في سورية والعالم، من خلال الصورة والكلمة، وكيف استخدم الإعلام كلّه دوره المؤثر في دمج هاتين الأداتين، والدفع بالنتيجة تجاه الجمهور أو المتلقي، سنفهم الكثير من اللغة السياسيّة العالميّة التي سعت للإعلان في بوق الخراب منذ آذار ٢٠١١ إلى القضاء على سورية في حرب ضروس، وسيلته الأولى كانت الإعلام، لنسف الهويّة السوريّة في كلّ مستوياتها، الثقافيّة، والاجتماعية، والسياسيّة، والاقتصادية... وهذا ما أشارت إليه بمهنيّة، وكثير من الدقّة، الدكتورة «نهلة عيسى» في محاضرتها «دور الإعلام في الأزمة الراهنة»، وذلك ضمن ندوة «اللغة العربيّة والإعلام» في قاعة محاضرات مجمع اللغة العربيّة في دمشق، ومنها أوجزنا لكم:

موت الواقع وصناعة الأساطير

تقول د. «نهلة عيسى» بالمراقبة لما جرى في الحرب على العراق نجد أن الصورة الإعلاميّة هي سيدة الحدث وهي التي قادت هذه الحرب أكثر من المجريات التي حصلت في الواقع الحقيقي ومنه كانت التجربة التي وسّع نطاقها أكثر في الحرب على سورية، ولذلك تؤكد: «... إن الإعلام في الحرب على العراق وعلى سورية كان أداة استراتيجية من أدوات الصراع». وفي مقارنة سريعة، يمكن لجميع من تتبع الأحداث وسيرها، الالتفات إليها واستنتاجها اليوم من خلال ملاحظة الكم الهائل من الصور التي بُثّت عن سورية منذ بداية الأحداث فيها إلى المرحلة الأخيرة، والتي يستنتج منها فوراً تناقض ليس فقط مع الواقع، بل أيضاً مع بعضها بعضاً. وتضيف المحاضرة قائلة: «تحوّل الشأن السوري إلى خبر شبه وحيد ومهيمن على معظم الشاشات العربيّة والأجنبية، وتحوّل مدّعو المعرفة به إلى نجوم بأهمية نجوم هوليوود».

خدعة الصورة

كان اللعب واضحاً من خلال الصورة وتجاوزاتها، فالتزوير وسيلة سهلة والأرشيف وافر بالمادة البصريّة المعدّة مسبقاً، ومشاهد لا تمت إلى أصل الصورة بصلة، ثم العمل على اختلاق مشاهد وتمثيل مشاهد أخرى يدعم بعضها بعضاً بلغة آنيّة، وتقنيات الجرافيك المتطوّرة مع الاستعانة بهواة التصوير والمراسل الهاوي وتصوير الأحداث بادعاء تسجيل كلّ ذلك لحظة وقوعه، وتقول عيسى: «... والحقيقة أن سورية تعرضت لتام تام كوني (جوقة الطبول) بصري، شارك فيه كثيرون، وكان فيه ضرب من التواطؤ في صنع الأكاذيب، وهو تواطؤ لم يبدأ مع بداية الأحداث كما قد يظن كثيرون، بل بدأ قبل ذلك بسنوات عندما بدأت أموال الخليج تستغل نجاح وشعبية الدراما السورية، فسعت لإنشاء شركات إنتاج تلفزيوني، ومن ثم استقطاب الكتاب والمخرجين والممثلين السوريين لتفرض عليهم موضوعات بعينها، ونجوم بالاسم تحولوا فيما بعد (عندما آن الأوان)، إلى ثوار ودعاة حرية وفقاً للأجندة الخليجية».

أدوات صناعة الأسطورة

حددت د. «نهلة عيسى» مجموعة من الأدوات التي ساهمت في جعل الإعلام أداة خطيرة في الحرب على سورية، فقد أشارت لخطورة الدراما السوريّة في السنوات العشر التي سبقت بداية الأحداث أي عام ٢٠١١ والتي صوّرت المجتمع لدينا على أنه مزيج من الفاسدين ومستغلي السلطة والداعرين، فكان كبؤرة البقاء فيها للأقوى ولا أمل فيها إلا للفاسد. ومن جانب آخر كان الأسلوب الذي قُدّمت فيه الأخبار عن سورية كميلودراما تتلاحق بالمفاجآت اليوميّة، وتتغير فيها الوجوه والحكايات وتتزايد لكنها تدور في فلك واحد...

تجسيد الانفعال واقعاً

وفي الجانب الآخر كان هناك مقدّم الأخبار الذي تدرب ليكون معلقاً على الحدث لدفع المشاهد للتمعن في الصور أكثر على أنها الحقيقة فحسب، بعيداً عن الدور الحقيقي له في استجلاء الحدث وتفسيره. وأيضاً من الأدوات البارزة التي تمّ اعتمادها في الحرب على سورية هي وهم النقل المباشر من خلال الاتصال بأي شخص في مكان وقوع الحدث ليدلي بدلوه كذباً كان أم صدقاً، وهذه حقيقة مجتزأة، وإن كانت فعلاً؟، فالهدف الأساسي منها هو خلق حالة وهميّة لتأكيد المصداقيّة في نسج الحكاية التي أرادتها وسائل الإعلام بغض النظر عن صدق ما يحدث في الواقع، وبذلك يتم دعم الحقيقة الإعلاميّة على حساب حقيقة الواقع. وتضيف الدكتورة «عيسى»: «... بهذا الشكل أصبح الانفعال هو الواقع، حتى لو كان لا علاقة له بأي واقع.. ولذلك أصبحت وسائل الإعلام ترسل المراسلين وتجنّد الصحفيين في المناطق الساخنة، ليس لنقل الحقيقة، بل لإعادة إنتاج الأحداث عبر صور بعيدة، ومهتزة.. ».

بطل وهمي

وتشير أيضاً إلى أنه من الأدوات التي تمّ اعتمادها أيضاً فكرة الخبير والمحلل النبيل واستعراض خبراتهم في جو هوليوودي، وأيضاً صناعة مشاهد يُخلق من خلالها أبطال وهميون كأظافر أطفال درعا التي لم تحمل أي صورة موثقة حتى اليوم، وأسطورة حمزة الخطيب، وقضية الكيماوي، وغيرها. وفي الطرف المقابل كان هناك عمل جدّي لتغييب آراء الأغلبية العظمى من الشعب السوري المدركة لحقيقة ما يجري على الأرض السوريّة والرافضة للتدخلات والداعية للحوار الوطني، وتسييد رأي قلّة من الشعب السوري على أنهم ممثلون له. وبذلك تصف «عيسى»: «.. اختلطت ثلاثية الإعلام الأزلية: إعلامي – حدث – مواطن، ليصبح المواطن إعلامياً، والإعلامي ناقلاً عن صحافة المواطن، والحدث سجال بينهما، والحقيقة في منأى عن كليهما...».

> «نهلة عيسى»: ضرورة العمل على تغيير الصورة السلبيّة لإعلامنا الوطني

في أخطاء الإعلام الوطني

ترمي المحاضرة في وجه آخر إلى مناقشة دور خطاب الحرب في الإعلام الوطني الذي اتسم بالانخراط غالباً، وبالأحاديّة، وعدم القدرة على الفصل بين الذات والموضوع، إضافة إلى ضعف القدرة على تحويل اللغة النصيّة والبصريّة إلى آلية من آليات تسويق صورة واضحة عن حقيقة الحرب، بدلاً من تسويق نمط «النحن» و«الهم».

بين الثقافة والتعدديّة

يحتاج تعريف مفهومي الثقافة والتعدديّة والعلاقة بينهما إلى مجلدات، لكن في التعريف المعاصر للثقافة نجد بأنها تعني: «أيّ نشاط لأي جماعة»، وتشير المحاضرة إلى أنّ: «... هذا التعريف مرن يقوّض التعصّب والتمحور حول الذات، لكن جدواه الاجتماعيّة لا تُعادل مرونته، ولا تعكس حقيقته، وهو أمرٌ تروّج له بقوّة وسائل إعلامنا من دون وعي بخطورته والتباسه... ذلك لأن الحديث عن كلّ جماعة باعتبارها ثقافة، وكلّ نشاط باعتباره ثقافياً، هو مقدّمة للرطانة حول التنوع الثقافي «التعدديّة» المؤدية إلى تغييب الحقائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والتي تشكّل المتغير المستقل، في حين تشكّل الثقافة متغيّراً تابعاً، إذ ما معنى الحديث عن تعدّد ثقافي (خاصة في الدولة الواحدة) في غياب تعدّد اقتصادي، وكيف يمكن لثقافتين مختلفتين أن تتشاركا أنشطة اقتصاديّة وسياسيّة متطابقة؟».

هل هناك أمل في أداء إعلامي وطني جامع ومنافس؟

طرحت المُحاضرة هذا السؤال؛ وأجابت بدايةً أنه وبتوافر الرغبة المقترنة بالإرادة يمكن الوصول للإجابة الإيجابيّة، فضرورة التوظيف الأمثل لوسائل الإعلام الوطنيّة، باتت واجبة، في خدمة قضيّة التدعيم الثقافي الوطني، وذلك لن يتأتى إلا عن طريق: عرض أو صياغة تعريف محدد لمفهوم «المواطنة»، الذي يحدّد مسؤوليات الجميع ويرفع من مستوى الوعي فيها. وأيضاً تسويق المفهوم والسلوك والانتباه لما يقدّم في وسائل الإعلام الوطنيّة، وإعادة ربطها ربطاً سليماً مع المواطن، وتغيير الصورة السلبيّة عن هذا الإعلام، وتقليص الفجوة بين المواطنين ومؤسسات الدولة، وتقوم على الأسس الآتية:

١- النظر إلى قضيّة تجديد (هيكلة) البنية الثقافيّة والقيميّة والروحيّة الوطنيّة (وأهمها الخطاب الثقافي الخشبي المجرد والمغرق في العموميات) عبر إطلاق تيار طازج وحر من الأفكار على مخزون عاداتنا، وتقاليدنا، وأفكارنا لمواجهة صعوباتنا الراهنة، كجزء لا يتجزأ من عمليّة التعافي الوطني، وتجنّب الفصل التعسفي بين الشأن العسكري والشأن المدني بكلّ تفرعاته ذاتاً ودوراً، وخاصّة أن جزءاً كبيراً من الحرب على سورية طابعه ثقافي حضاري، مع أهمية تأكيد فكرة أن الدورين يجب أن يترافقا ويتكاملا معاً.

٢- العمل على تغيير المناخ الفكري والمزاجي والثقافي السائد عن أن الحرب طويلة، وأنّه من غير المجدي السير في عمليّة إعادة الهيكلة القيميّة والثقافيّة في ظل استمرار الأعمال العسكرية... وربط عملية إعادة الهيكلة الثقافيّة الوطنيّة بتأكيد استقلاليّة القرار الوطني، وإرادة الشعب السوري، وتطلعاته، ورغباته، وهو أمرٌ يدعم روح المبادرة الوطنيّة ويحفز روح المسؤوليّة، والرغبة بالمشاركة في صنع القرار على المستوى الوطني.

٣- العمل على أن يكون الإعلام انعكاساً لواقع حال الوطن والمواطنين، بشكل يردم الهوة بين الإعلام الوطني، وبين الفئات الاجتماعية المختلفة التي لا تجد في وسائل الإعلام الوطنية أدنى انعكاس لحياتها وواقعها والقضايا الجوهرية التي تشغل بالها.

٤- يجب النظر إلى وظيفة الاتصال ليس باعتبارها إخباراً وترفيهاً فقط، بل باعتبارها أيضاً وظيفة ثقافية معرفية، مهمتها الأولى ترسيخ القيم الإيجابيّة بهدف إحداث التنمية الاجتماعيّة، وأيضاً القضاء على التناقض الفادح بين الرسائل الإعلاميّة ومبادئ الدستور الوطني التي تنص على المساواة الكاملة بين جميع المواطنين، في حين كثير من الرسائل الإعلاميّة (خاصّة الدراميّة) تروّج لمفاهيم إقصائيّة سواء على مستوى النوع، أو الدين، أو الأيديولوجيا.. إلخ.

٥- يجب أن تقوم وسائل الإعلام بدور فعال في تخفيف الاحتقان الوطني، والتخفيف من لغة العنف، والتحقير، والتصنيف، وتنقيّة أسلوب الخطاب المستخدم من العبارات غير الملائمة واعتبار الاختلافات مصادر غنى حضاري، وليس مصادر خلاف.

٦- العمل على تجنّب التعارض والتضادّ والالتباس في الرسائل الإعلاميّة بحيث لا تظهر الصورة ونقيضها في وسائل الإعلام.

٧- تكثيف الرسائل الإعلاميّة، خاصّة في المناطق الأقلّ تحضّراً والأكثر تضرّراً من الأحداث بهدف رفع مستوى الوعي وتغيير الاتجاهات نحو دورها في المجتمع.

٨- إطلاق حوار وطني عبر وسائل الإعلام حول تخلّف وفوقيّة الأساليب الثقافيّة الوطنيّة التي تحتفي بالشكل على حساب المضمون وفي عمقها الأساليب الإعلاميّة، التي تبدو كأنّها تتعامل مع الجماهير كحشود من الحمقى، رغم كلّ الدلائل القاطعة التي قدّمتها الحرب على خطورة وإقصائيّة الاستقطاب الثقافي، ودور الخطاب الإعلامي والحقائق التلفزيونيّة فائقة الواقعيّة، في جرّ السياسي إلى الأجندة الإعلاميّة، وفق المبدأ التجاري الشهير «التسوّق واحد لواحد» أو العالم المُفصّل على مقاس الفرد من دون شروط ولا خبرة ولا أهليّة!

جيرارد ديباردیو في كتابه «بريء»: أنا لا أخفي حبي ودعمي للرئيس بوتين

لقد فقدت الثقة ببلدي فرنسا بسبب حكومتها وصحفييها

مها محفوض محمد

أحد عمالقة السينما الفرنسية لا يقل عن جون بول بلموندو وغابان، لائحة أفلامه المدهشة التي تجاوزت المئة والخمسين رافقت عدة أجيال.

جيرارد ديباردیو الممثل والمخرج حاصل على وسام جوقة الشرف من رتبة فارس وجوائز أخرى عديدة منها جائزة سيزار التي فاز بها مرتين إحداهما عن فيلمه «المترو الأخير» الذي شكل نقطة تحول كبير في حياته، وجائزة فينيسيا السينمائية كأفضل ممثل عن دوره في فيلم «بوليس» وجائزة غولدن غلوب لفيلمه «البطاقة الخضراء» وجائزة ستانيسلافسكي في مهرجان موسكو السينمائي وقد رشح لجائزة الأوسكار عن دوره الرئيس في فيلم «سيرانو دو بير جيراك» الفيلم الذي شغل النقاد الأميركيين، وقد أدى الدور الرئيس في أفلام كثيرة كدوره عن «راسبوتن» وعن رئيس صندوق النقد الدولي «دومينيك ستراوس كان» الذي قال عنه ديباردیو: أعتقد أنه يشبه الشعب الفرنسي قليلاً فهو متعجرف إلى حد ما.

جيرارد ديباردیو المولود في شاتورو عام ١٩٤٨ لعائلة فقيرة عانى في طفولته الكثير وعاش متناقضات شتى صنعت منه شخصية لها فرادتها وخصوصيتها.

اعتنق الإسلام بعد زياراته لمصر في أعوام الستينيات ليغوص بعدها في عالم السينما ويصبح ظاهرة فريدة من نوعها، في أواخر عام ٢٠١٢ وعندما فرضت فرنسا ضريبة كبرى (٧٥٪) على ذوي الدخل المرتفع رحل ديباردیو إلى روسيا وطلب الجنسية الروسية التي منحت له بأمر من الرئيس بوتين.

المرحلة الروسية الواعية

اليوم يصدر ديباردیو كتابه «بريء» الذي خرج إلى المكتبات في ١٨ تشرين الثاني الماضي وأثار اهتمام الصحافة الفرنسية كثيراً وقد نشرت صحيفة الاكسبريس صفحات من الكتاب الذي وصفته بالسيرة الذاتية لرجل عصامي يتحدث فيه عن فترة

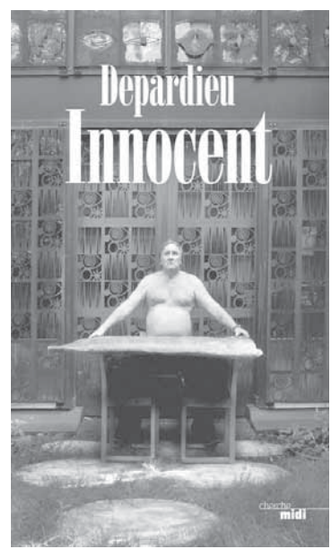

اعتناقه الإسلام عام ١٩٦٥ وعن علاقته بالرئيس بوتين حيث يقول عنها:

اذا اقتربت من الروس تفهم أن هذا البلد بحاجة إلى رجل من طبيعة بوتين ليكون على رأس البلاد وأنا سمعته كيف يتحدث لمن يريدون استنزاف بلاده فهو لا يلزم الصمت أمام هؤلاء وهم يخافونه وليس العكس، لقد التقيت الرئيس بوتين عدة مرات وكنا في كل مرة نتحدث في الجيوسياسة، إنك لتجد النقاوة في قلب هذا القائد الروسي، ويتابع ديباردیو: يلومونني على علاقتي بالرئيس بوتين ألم يكن الضلال في أن تكون علاقتي مع عائلة كينيدي وحاشيتهم مثلاً؟ أنا لا أخفي حبي ودعمي له وأنا مواطن روسي اليوم.

وقد اعتبرت هذه الأنشودة إلى روسيا كرسالة قدح إلى الولايات المتحدة التي عبر عنها ديباردیو في مؤتمر صحفي بعد أدائه عرضاً مسرحياً في أحد مسارح موسكو حيث وجه نقداً لاذعاً للأميركيين يقول فيه: لقد عمل الأميركيون على تدمير الشعوب الأخرى من دون توقف بعد أن تصارعوا فيما بينهم وقتلوا الهنود الحمر ومارسوا عليهم العبودية والإذلال ثم حرب الانفصال وكانوا أول من استخدم القنبلة الذرية وفي أي مكان حيث يمرون تكون بؤر الخسة والظلم،.. لا.. لا أنا أفضل أن أكون روسياً وإذا توقف الأوروبيون عن الاصغاء والتبعية للأميركيين فسأكون سعيداً جداً، وفي كتابه يقول: الأميركيون الذين يدخلون عجة البيض إلى سندويشاتهم والذين بعد مئتي عام يستمرون في القتل وليسوا مستعدين للتخلي عن أسلحتهم المدمرة

باختصار هؤلاء غير بريئين.

وبعد تفجيرات ١٣ تشرين الثاني في باريس تحدث ديباردیو لصحيفة لوفيغارو قائلاً: إن الخطر الحقيقي ليس في الدين ولم يكن يوماً في المعتقد، الخطر الحقيقي هو عندما يفسر الإنسان النصوص المقدسة بجهل وانحراف لهدف واحد عندما يضع نفسه مكان الخالق _وليس بالضرورة أن يكون واعياً_ هنا تبدأ الخطورة.

الريادة والسياسة

كما يتحدث ديباردیو في كتاب «بريء» عن الرياء المطلق لرجال السياسة يقول: لا أحب ازدراء هؤلاء السياسيين من يسار أو يمين، لا أريد الانتماء إلى هذا البلد مع أني أحب الفرنسيين ماعدا الصحفيين الذين أصبحوا مأجورين لحكومة هولاند ومنذ اللحظة التي انتقدتني حكومتي بشدة لم أعد أكتم الأمر بأنها لا تهمني في شيء وقد أرسلت لها رسالة لها دلالاتها وأنا أكره إرث عصر الأنوار الذين يظنون أنهم أناروا العالم فيه فنصوص عصر الأنوار هي نصوص سياسية أيضاً.

لقد فقدت الثقة ببلدي بسبب هذه الحكومة ولم أعد أحب فكرة أوروبا كلها ولا قادتها ثم يوضح ديباردیو أنه لم يجد الكلمات المناسبة في قساوتها لتوصيف سياسة الحكومة الفرنسية في حربها خلال أعوام الستينيات في الجزائر والتي استمرت ثماني سنوات انتهت بتحرير البلاد فيكتب ديباردیو: ما فعلته الحكومة الفرنسية هناك مخز وشائن لقد سلكنا سلوك القذرين وعلى هذا الأساس فأنا أساوي بين من ارتكبوا تلك الجرائم وبين هتلر، وإلى متى سنبقى ننتظر فيلماً طويلاً يخوض في الخفايا المرعبة لحرب الجزائر وما حصل فيها من تعذيب؟. ومما جاء في كتابه «بريء»: كل من لا ينخرط في السياسة هو بريء أي من يرتبط بعالم آخر بفضاء خارجي وأنا أعمل مع أشخاص طيبين أساعدهم أحياناً، لقد تغير الفن السابع تماماً ولا بد من الوقوف على حقيقة أن الاقتصاد اليوم هو الجبروت فقد أفقد السينما الفرنسية عمقها وعلى مدى زمن طويل كان الشعراء والفنانون يستطيعون التحدث مع الناس لإعداد مشاريعهم وكان هناك منتجون يلتمسون لهم المال اليوم وقبل كل شيء يصوغ المنتجون نماذج وقوائم شروط وتنظيم برامج للسينما أي إن مهنتهم لم تعد تشجيع الشعراء والكتاب بل لصنع إنتاج لقنواتهم فقط، أنا لست رجل أعمال وليس لدي رغبة بالإنتاج، أحاول ممارسة مهنتي فقط لا كما يفعل الممثلون الأميركيون.

الحياة في الدور لا تمثيله

ويبوح ديباردیو في كتابه بأنه اعتنق الإسلام بعد زياراته لمصر وحضوره حفلات أم كلثوم وسماع إنشادها بعض سور القرآن التي نقلته إلى عالم الروحانيات ويروي كيف مارس طقوس الدين الإسلامي وكان يثابر على تأدية الصلوات الخمس في اليوم وبقي يتردد إلى الجامع لمدة عامين.

وبمناسبة صدور الكتاب أيضاً وفي لقاء تلفزيوني مع (TV5) استحضر ديباردیو أهمية الأدب في حياته وتحدث عن هوايته في القراءة ومن يثير اهتمامه من الكتاب والروائيين مثل ألكسندر دوماس وبلزاك كما كان لقربه وصداقته مع مارغريت دوراس وفرانسواز ساغان أثر كبير في جعله قارئاً نهماً مشبوب العاطفة ومثيراً لها وكان لرواية «سيرانو دوبيرجيراك» التي حولها إلى فيلم دور مهم في حياته، ثم للقرآن والقديس أوغستان التأثير العميق في حياة هذا الفنان، يقول: لقد ساعدتني سرديات حاج روسي ومؤلفات من القرن التاسع عشر على محاولة الصلاة وكان ذلك مفيداً جداً لي، كما تحدث عن تذوقه لروايات الاستباق كروايات الفانتازيا التي تستبق تطور العلوم أو الأحداث مثل رواية «ألف شبح وشبح» لألكسندر دوماس أيضاً تستهويه أسرار الأديان وخاصة ما كتبه أدغار آلان بو ويضيف ديباردیو: إن المال لا يصنع السعادة بل هي في الفرح والبساطة وعلى هذا يمكن تعريف ديباردیو بأنه ممثل ليس لديه الرغبة في أداء الدور بل العيش ببساطة ذلك لأنه حين يريد اللعب يتوقف كل شيء.

النخب الثقافية والعامة.. قطيعة رحم مجتمع واحد!!

المثقفون في وادٍ.. والعوامُّ في وادٍ!

غياب النخب الثقافية حين يناديها صوتُ الواجب!

بيان شواك

أما آن للنخبة المثقفة أن تعودَ لتمارس دورها في التوعية والتخلي عن دور المشاهد، والانكفاء للعمل بالشأن العام دون النظر إلى الأمور بطريقة سلبية نقدية فقط، والقدوم بدلاً من ذلك إلى فعل ثقافي بنّاء فاعل؟!

فالنخب هي جزءٌ من المجتمعات، لكن ثمةَ فجوة بين النخب والمجتمع بسبب غياب الحوار الموضوعي والمعرفي بينهما، والتباين بين الرصيد الحضاري الذي نملكه وعدم تطور هذا الرصيد بما يتناسب مع إرثنا الحضاري، فضلاً عن سير التنمية بمستوياتها المتعددة بوتيرة بطيئة، وهذا ما أدى حتماً إلى حالة التراجع. ولا يختلف اثنان على أن النخبة الثقافية قوة توجه حركةَ التطور والتنمية إلى مساراتها المتنوعة. فإذا سلكت تلك النخبة مسارها الصحيح، وتمتعت بحث كبير ومناسب، سيكون ازدهار التنمية واستمرارَ التطورَ نتاجاً حتمياً لها. وبهذا فإن النخب الثقافية تلعب دوراً مهماً في حياتنا المجتمعية العربية وربما بدرجة تفوق مثيلتها في بلدان أخرى كثيرة في العالم.

لكن لا يمكن إنكار التباس وارتباك مفهوم «النخبة» في الوعي العربي عموماً، وذلك لجلوس الصفوة أساساً في برجٍ بعيداً عن بقية البنيان الاجتماعي، من حيث القطيعة المعرفية والتراتبية الرأسية، وقد أغفل من يعتبرون أنفسهم نخبة في العالم المتمدنِ أن جزءاً جوهرياً من عظمتهم يكمن بتماسهم مع الوعي الجمعي والهم العام. فالمثقفون- وليس الجميع بطبيعة الحال- يعانون مشكلة التعالي، لأنهم مختلفون عن البقية، واختلافهم أكسبهم هذه الصفة، لذلك نرى الفجوة الكبيرة بين المثقف والمجتمع، لكونه ينظر لهم بتعالٍ ويطمح أن يكون في الوقت ذاته عنصراً فعالاً ومغيراً لما يراه هو حسناً. هذا بالتأكيد لن يحصل بتاتاً لأن المعادلة ينقصها عنصرٌ مهم هو التفاعل والتواصل مع الجمهور.

وقليلاً ما نجدُ للجمهور العام حضوراً في الفعاليات والندوات الثقافية لأن الخطاب يعاني نبرة الفوقية، ويبقى الخطاب الثقافي في كل أشكاله يدور في حلقة المثقفين أنفسهم! وبالتالي فالمثقف العربي بلغته المتعالية ساهمَ من دون أن يدري في زيادة الهوةِ المعرفية بدلاً من زيادة المعرفة.

والنظر إلى ذلك الطيف (العامة) بأنهم عالم من البسطاء المعوزين ثقافياً وإدراكياً كما لو كان هؤلاء المهمشون -بحسب النخبة الفكرية- أرقاماً لا تمتلك الوعي والتأثير، وكذلك اتخاذ الطبقة المثقفة هويةً واحدةً بارتيادهم مقاهي لا يصدر منها إلا صوت «فيروز» مثلاً، وحملهم إيديولوجيات تثير الشك والحذر في نفوس العوام!

وقد تساهم النخب الثقافية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بزيادة وعي الشعوب، كأدباء العصور الوسطى في أوروبا الذين أبدعوا أنواعاً جديدة من النثر كالفن الروائي، وأوجدوا مكتبات جوالة في الأرياف والضواحي لتحقيق أكبر عدد من القراء، في ظل محاربة ورفض للمسرح والشعر والمطالعة. حتى بات نهايّة طريق نضال المثقفين آنذاك بداية عصر نور وازدهار ونهاية لعصور الظلام في أوروبا، وأضحت القراءة حاجة ملحة دفعتهم لاختراع «الطابعة» لتسهيل عملية نشر المؤلفات.

وفي النهاية يبقى التساؤل هنا، هل التحامل على المثقف فيه شيءٌ من المغالاة؟! لماذا نطالب النخب بالنزول إلى مستوى القارئ ولا نطالب القارئ أن يرتقي فكرياً وثقافياً للوصول إلى النخب؟ أم إن هناك حلاً وسطياً ممكناً للجميع؟